(١-٣)

عظيم يتطلع إلى المستقبل

«الختيار» أول رئيس عربي حمل على جزمته تراباً من إسرائيل

اليساريون الى الحركة بأنها «يمينية» واعتبرتها الأوساط المحافظة والتقدلية «ثورية» إلا أن أبوعمار استطاع بحنكته أن يستفيد من النظرتين في حشد التأييد القومي والأممي لصالح القضية الفلسطينية...

مرارة النكسة

يمكن الحديث مطولاً عما أصاب العرب بعد هزيمة ١٩٦٧م وزيادة عدد اللاجئين الى ٤٠٠ ألف ... واتساع نطاق قمع الحكومة الاسرائيلية للفلسطينيين في محاولة منها لاخماد الكفاح مستغلة صدمة انتصارها.. وسط تراجع الاهتمام العربي بالقضية الفلسطينية.. لكن هذا الوضع العربي المزري مثّل حافزاً لعرفات وانتقاله ليلعب دوراً في غير الاتجاه الذي رسمت النكسة معالمه السلبية... ففي بحر عام ١٩٦٨م رفع أبوعمار مجدداً شعاري فتح «هويتي بندقيتي»، و«ثورة ثورة حتى النصر» فذهب يتقدم صفوف الفدائيين، والمقاتلين الفلسطينيين... حيث نفذ عمليات فدائية ضد الاسرائيليين داخل الأراضي المحتلة في مارس ١٩٦٨م... فخاض بذلك أول مواجهة عسكرية مع الجيش الاسرائيلي على طول نهر الأردن عرفت بمعركة «الكرامة» جاءت رداً على هزيمة ٦٧ من جهة.. والتأكيد على استمرار الكفاح المسلح ضد الاحتلال من جهة أخرى.

بعد أيلول الأسود

وحتى مطلع عام ١٩٧٠م، السنة التي جاءت بعد حادثة جريمة احراق المسجد الاقصى من قبل متطرف صهيوني في ٢١اغسطس ١٩٦٩م، لم يكن أحد يتوقع أن أيام سبتمبر ١٩٧٠م تحمل ذاك الاقتتال الدامي بين الاشقاء على مقربة من الاحتلال الاسرائيلي- ففي ذلك العام انفجرت الأحداث المأساوية والمؤسفة فيما يُعرف بأيلول الاسود فقد اصطدم أبوعمار ومقاتلوه مع الجيش الأردني في عمان.. واضطر للخروج متخفياً بواسطة عربية الى القاهرة لحضور القمة العربية الطارئة التي عقدت بين ٢٦-٢٩ سبتمبر ١٩٧٠م وانتهت الى فاجعة العرب بوفاة عبدالناصر..

ولم يتوقف ياسر عرفات في مسيرة الكفاح فانتقل الى لبنان مطلع السبعينيات.. وفي ١٩٧٢م.. تعرض لهجوم اسرائيلي مباغت بالعرقوب في الجنوب اللبناني وخاض جنود الاحتلال معارك ضارية دامت أربعة أيام..

ورفع غصن الزيتون

وفي حين كان الاعلام الاسرائيلي يواصل حملته المسعورة ضد المنظمة وقيادتها ردت المقاومة الفلسطينية بعمليات فدائية داخل الأراضي المحتلة في عام ١٩٧٤م.. وفي سياق التناغم بين المقاومة المسلحة والتحرك الدبلوماسي قادت المنظمة برئاسة عرفات جهوداً سياسية شملت معظم العواصم العربية توجت باعتراف عربي جماعي بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني.

ومهد ذلك القرار الذي اتخذه «مؤتمر القمة» في الرباط عام ١٩٧٤م الطريق أمام منظمة التحرير.. فاتجهت نحو بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية- سابقاً- كما تمكنت المنظمة بقيادة عرفات من مد جسور الصداقة مع القوى الليبرالية والمحبة للسلام داخل وخارج أوروبا..

وبهذا التحرك نجحت القيادة الفلسطينية في انتزاع الاعتراف الدولي بالمنظمة.. فالزيارة التاريخية التي قام بها عرفات الى جنيف والكلمة التي ألقاها أمام أعضاء الجمعية العمومية للأمم المتحدة بعد نقلها الى جنيف لأول مرة في التاريخ إثر رفض الولايات المتحدة منح القائد الفلسطيني فيزا للدخول الى نيويورك.. وفي ذلك الاجتماع المنعقد في ١٣نوفمبر ١٩٧٤م.. تحدث عرفات عن عدالة قضية الشعب الفلسطيني مؤكداً أنها تدخل ضمن القضايا العادلة للشعوب التي تعاني من الاستعمار والاضطهاد... واستعرض الممارسات الاسرائيلية العدوانية ضد الشعب الفلسطيني وناشد ممثلي الحكومات والشعوب مساندة شعبه في تقريرمصيره والعودة الى دياره واختتم عرفات بعبارته المشهورة :«جئتكم بغصن الزيتون وبندقية الثائر فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي.. الحرب تندلع من فلسطين والسلم يبدأ من فلسطين»..

وإثر ذلك الخطاب أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارات حاسمة تؤكد حقوقاً فلسطينية عديدة كحق تقرير المصير وعودة اللاجئين والتعويض وفقاً للقرار المحدد لها قرار رقم ١٩٤.. وقد عززت تلكم القرارات أيضاً اسرائيل دولياً خصوصاً بعد القرار الذي اعتبر الصهيونية عنصرية مماثلة للنازية والذي صدر من الجمعية العامة في ١٩٧٥م..

من تل الزعتر الى ملحمة بيروت

هذا الانتصار السياسي لايعني اطلاقاً أن لاعوائق ولاصعوبات أمام الشعب الفلسطيني وقيادته... ولكن بالتأكيد أن هذه التطورات اصطدمت بكارثة الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥م، وجد أبوعمار ذاته منغمساً في تلك الحرب التي أودت بحياة مائة ألف من اللبنانيين وتعرض الفلسطينيون الى مذابح «تل الزعتر» في ١٣و١٤ أغسطس ١٩٧٦م، التي تمت بعد حصار المجمع لمدة ٦٠ يوماً وفقد الفلسطينيون نحو ٢٠٠٠شهيد..

ولم تكد أسابيع أو أشهر قليلة تمضي على مذبحة تل الزعتر حتى يجد عرفات نفسه في مواجهة العدو عند الاجتياح الاسرائيلي للجنوب اللبناني في مارس ١٩٧٨م... خاض أبوعمار معركة شرسة ضد الاحتلال في أرنون بمنطقة الشقيف.. مايعني أن الرجل كان يشارك مقاتليه المعارك مباشرة.. وعندما كانت الظروف السياسية أو تحركاته الدبلوماسية تبعده عنهم يحرص على التواصل مع المقاتلين... يقول عنه كريم : لقد أظهر أبوعمار الكثير من الجرأة عندما كان يخوض القتال مع رجاله، لكنه أثبت قدراً كبيراً من الزعامة عندما راح يأمر مقاتليه من بعيد ويطيعونه... إنه من دون شك قائد عسكري وزعيم سياسي وهو يفخر بأنه مارس الكفاح المسلح خلافاً لباقي الزعماء العرب..

ويذكر كريم بقردوني أنه شاهد عرفات في أحد الاجتماعات مع الرئيس سليمان فرنجيه عام ١٩٧٥م وقد احتدم النقاش فانبرى أبوعمار يقول بحدة: «إني القائد العربي الوحيد الذي يحمل على جزمته تراباً من اسرائيل... إني استمد زعامتي من الدم والشهادة وليس من الكراسي والكواليس»..

مرحلة التحول

وفي هذا السياق يبقى أن الحدث الأبرز الذي اضطرت منظمة التحرير وفي ضوء المعطيات العربية الدولية تجاه قضية فلسطين.. الى التعاطي معه هو القرار الذي اتخذه المجلس الوطني الفلسطيني في مارس ١٩٧٧م في دورته الثالثة عشرة المنعقدة في القاهرة، بتأكيده مجدداً على مكانة المنظمة... والعمل على استرداد الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وعلى رأسها حق العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة على التراب الوطني»..

ورأى المراقبون أن ذلك القرار كان على مايبدو مقدمة لما سيأتي من تحول فلسطيني.. فضلاً عن أن قرارات دورة القاهرة حظيت بدعم أكبر في المحافل الدولية للقضية الفلسطينية... بيد أن مؤشراً سلبياً خرج من «اسرائيل» في يونيو ١٩٧٧م.. ملخصه أن الليكود بزعامة مناحيم بيجن تمكن من الوصول الى سدة الحكم في «اسرائيل» لأول مرة في التاريخ.. وفي السنة ذاتها وتحديداً في ١٩ نوفمبر أقدم الرئيس المصري أنور السادات على زيارة القدس المحتلة.. ورغم ماحدث من انقسام في الجسم العربي ازاء ذلك فقد مضى السادات مع بيجن في توقيع معاهدة كامب ديفيد في مارس ١٩٧٩م برعاية الرئيس الأمريكي جيمي كارتر..

ووسط انقسام عربي أضر بالعمل القومي كما أثر على مسار القضية الفلسطينية حيث قامت اسرائيل بمهاجمة قواعد الفدائيين في لبنان... فيما حاول أبوعمار درء الأخطار الكارثية التي حملتها كامب ديفيد على قضية العرب الأولى، خاصة على صعيد عزل مصر عن الساحة العربية مما أدى الى احتلال التوازن لصالح اسرائيل وامريكا..

قبل حصار بيروت

وفي صيف عام ١٩٧٨م اتسم الوضع العربي بالتدهور والانقسام عقب اتفاقية «كامب ديفيد».. وعزل مصر عن الساحة العربية.. حاول أبوعمار استخدام كافة الوسائل لتجنب الانعكاسات الخطيرة على قضية العرب الأولى..

مما أدى الى اختلال التوازن لصالح اسرائيل وأمريكا.. وكعادتها استغلت حكومة تل أبيب التشرذم العربي.. وقامت بمهاجمة قواعد الفدائيين في لبنان... واشتداد الهجمة الشرسة على قطاع غزة وعلى المخيمات..

وفي تلك الفترة كانت ايران تغلي بالقوات الاسلامية بقيادة الخميني والتي رأى فيها عرفات بريق أمل ممكن أن يصب في صالح القضية الفلسطينية ولكن هذه البارقة سرعان ما خبت وذهبت أدراج الرياح بفعل انفجار الحرب العراقية الايرانية التي اندلعت على نحو مدمر في عام ١٩٨٠م.. وتحولت أنظار المجتمع الدولي لمتابعة حرب الخليج الأولى وتراجع الاهتمام بقضية الشعب الفلسطيني.. وفي العام ١٩٨٢م.. يحدث مالم يكن يتوقعه أحد... ففي سبتمبر من ذلك العام قام الجيش الاسرائيلي بقيادة أريل شارون وتحت سمع وبصر العالم وحماة حقوق الانسان وصمت العرب المهين بغزو أول عاصمة عربية هي بيروت حيث كان يتواجد عرفات.. الذي وصف أيام الحصار بأنها الأقسى في حياته... حيث قام جيش الاحتلال بحصار جوي وبري وبحري على بيروت الغربية.. وقطعت عن عرفات ومقاتلي الثورة الفلسطينية كل خطوط التموين والاتصالات والمواصلات وسط قصف بربري استخدم فيه جيش الغزو الارهاب الصهيوني كافة الأسلحة الفتاكة بما في ذلك المحرمة دولياً..

وفي تلك الأثناء وجّه مناحيم بيجن رئيس الوزراء الاسرائيلي آنذاك رسالة الى الرئيس الامريكي رونالد ريجان وقتذاك تناقلتها مختلف الوسائل الاعلامية، مما قال فيها:«إن الحرب الاسرائيلية هدفها القضاء على زعيم المخربين في بيروت- يقصد عرفات- كما قضى الحلفاء على هتلر في برلين»!!

ويذكر في تلك الفترة كيف حشدت اسرائيل كل آلتها العسكرية الجبارة... ومخبريها في محاولة يائسة لتصفية رأس القضية الفلسطينية عرفات... فقصف الطيران الحربي الاسرائيلي كل المواقع التي كان يتواجد فيها أو يتردد عليها أبوعمار... ومما نشرته الصحافة العربية والعالمية على نطاق واسع في هذا الصدد كيف دمرت غارة جوية اسرائيلية عمارة في العاصمة اللبنانية بعد دقائق من مغادرة عرفات لها وأصيبت سيارته الشخصية ولم يكن داخلها..

صمود أبوعمار

ووسط مشاهد الدمار والخراب الناجم عن شراسة وبربرية القصف الجوي الاسرائيلي لبيروت الغربية.. حيث كانت القنابل العنقودية والفسفورية تنهمر من طائرات العدو كالمطر في حين كان العرب منشغلين في تلك الأيام بمتابعة مسابقة كأس العالم..

في تلك الأجواء المكفهرة والمتفجرة لم يخرج أبوعمار ليلعن استسلامه أمام عدسة الكاميرات.. فعلى العكس من ذلك جمع الرجل حلفاءه من القيادات اللبنانية وكذا الفلسطينية ومما قاله لهم: «يا أخوتي قراري هو القتال حتى الاستشهاد فنحن في الأصل أمة الشهادة من يلتزم فقد اختار ومن لم يلتزم فهو حر»..» وصمد أبوعمار مع رجاله ٨٨ يوماً وصفها المحللون بأنها أطول الحروب العربية الاسرائيلية دفع فيها ٧٢ ألف شهيد وجريح..

وفشل حلم ريجان الذي كان يستعد لوضع صورته في المكتب البيضاوي مع تحقيق حلم شارون وبيجن في تصفية رمز الكفاح الفلسطيني أو اصطياده بالشبك إلا أن أبوعمار الذي حقق نصراً إعلامياً يومها غادر بيروت وفقاً لخطة فيليب حبيب مندوب الرئيس الأمريكي..

ماذا تمنى عرفات عام ٨٢م؟

وعقب مغادرة المقاومة بيروت كان السؤال الكبير يحوم : كيف ترك أبوعمار العاصمة اللبنانية وهو الذي تمسك بالقتال حتى الاستشهاد؟! وحده عرفات أجاب على هذا السؤال في خطاب ألقاه في صنعاء بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثانية لانتفاضة ثورة الحجارة والذي أقيم في التاسع من ديسمبر ١٩٨٩م.. قال بمرارة وهو يستعيد مشاهد الحصار وماتعرض له من مؤامرات ليذكر الجميع بقوله:«ماتمنيت في يوم من الأيام أن تكون بيروت مدينة فلسطينية مثل تلك الأيام-١٩٨٢م- لأنه ما كانش ممكن أن يخرجني منها أحد لولا حلفائي اللبنانيين.. ففي أحد الأيام اجتمعوا معي-يقصد اللبنانيين- وقالوا لي:

ماذا تنتظر يا أبوعمار.. والله اذا انتظرت مدداً يأتيك من العرب- خلال اسبوع ننتظر معك اسبوعين.. اذا تنتظر شهر ننتظر معك شهرين...»

ورد على حلفائه اللبنانيين موجهاً كلامه للرئيس المرحوم تقي الدين الصلح فخاطبه أبوعمار بقوله:

أنتم كبار في السن وأكبر مني.. وقطعاً عشت عندما خرج يوسف العظمة ليقاتل احد القادة الاوروبيين في ميسلون.. وكان العظمة يعرف بأنه لايستطيع أن يستمر ويقاوم.. ولكنه خرج ليقاوم حتى لايقال أنه في عاصمة عربية ممكن أن يدخلها عدو للأمة العربية دون أن يدافع عنها الأبطال... ولذلك - والحديث هنا مازال لياسر عرفات- نحن نقاتل في بيروت حتى لايدخلها التتار الجدد.. الفاشيون الصهاينة دون أن يقاتل عنها الأبطال ودون أن يدافع عنها الأبطال... ولولا أنهم طلبوا مني الخروج لما خرجت»..

مرارة صبرا وشاتيلا

وبينما كان حماة بيروت بقيادة عرفات يرحلون في الأول من سبتمبر ١٩٨٢م من العاصمة التي صمدت في وجه البرابرة نحو ثلاثة أشهر لكي يجنبوا المدنيين هناك المزيد من المعاناة والقصف والدمار وبعد أن يئس أبوعمار من وصول النجدة العربية .. رحل الرجل مع مقاتلي الثورة الفلسطينية الى طرابلس بعد أن تعهدت كل من الحكومة اللبنانية والحكومة الامريكية بتأمين المقاتلين الراحلين وسلامة المدنيين الأبرياء ومعظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ والشباب الفلسطينيين... وماهي إلا أيام حتى تعلن الحكومة الأمريكية في التاسع من سبتمبر٨٢م أن المشاة البحرية الأمريكية التابعة للقوات المتعددة الجنسيات والتي التزمت بحماية الفلسطينيين في المخيمات سوف يرحلون في اليوم التالي- بعد ١٦يوماً من وصولهم..

وفي السادس عشر من نفس الشهر تحاصر الدبابات الاسرائيلية مخيمي«صبرا وشاتيلا» ثم قصفتها بالمدفعية وقطعت التيار الكهربائي ويدخل جنود الكتائب المخيمات ويسمع العالم بمذبحة صبرا وشاتيلا التي أودت بحياة الآلاف من المدنيين «راجع كتاب صبرا وشاتيلا المذبحة» وفي تلك الأثناء شعر أبوعمار بالمرارة والقلق وهو يسمع ماتتعرض له المخيمات الفلسطينية من إبادة وهو بعيد وغير قادر على الدفاع عن الشيوخ والشباب والنساء والأطفال الذين أحبوه باعتباره الأب والصديق لكل فلسطيني.

الخروج الخامس

وهكذا خرج أبوعمار ومقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية بعد صمود أسطوري أواخر صيف ١٩٨٢م.. إثر الحصار الاسرائيلي لبيروت الغربية دون أن تستطيع قوات الغزو بقيادة شارون تصفية منظمة التحرير عسكرياً.. بل وجد العالم أن المنظمة تصلّب عودها وكبرت سياسياً.. وأن الرقم الصعب «الذي كان أبوعمار يطلقه على القضية الفلسطينية هو كذلك.. وهو الرقم الأصعب في الزمن الصعب.. وفي منطقة هي الأخطر في العالم.

ومن بيروت الى طرابلس رجل أبوعمار.. ليجد نفسه هذه المرة في معركة يخوضها مع الجيش السوري.. ولم يشأ شارون أن يخرج عرفات سالماً من هناك.. وحين اقتربت القطع البحرية من شواطئ طرابلس على إثر تصريح شارون الذي قال فيه:«انه من الخطأ أن نترك عرفات يخرج حياً هذه المرة..» ومع ذلك فشل شارون في تحقيق أمنيته.. فاستطاع عرفات ورجاله الخروج من قلب الحصار حاملين معهم علامة الانتصار على ظهر الباخرة «أوديسيساس ايلقيس» متجهاً الى اليمن..ومنها الى فلسطين.. للحديث بقية،،

لماذا تمنى عرفات أن لايخرج من بيروت؟؟

أبو عمار حوّل منظمة التحرير من هيئة هامشية إلى مؤسسة تشغل العالم